الفصول والغايات

سيدي صاحب الفخامة الرئيس

سيداتي وسادتي

لو استشير ابو العلاء في هـذا المهرجان الذي نقيمه الآن احتفالا بعيده الالفي لما حفل بالعيد ولا أقر المهرجان فقد كان ازهد الناس في هذه المظاهر وأشدهم انصرافاً عنها ونفوراً منها . ولكنه من غير شك كان يرضى بعض الرضى عن هذا الحفل الذي يقام لاحياء الأدب في ظل الدولة التي كان يتمناها ويدعو اليها ولكنه لا يظفر بها ولا ينتظر أن يكون الظفر بها قريبا . في ظل الدولة التي لا يظلم زعماؤها الرعية ولا يستجيزون كيدها ولايعدون مصالحها وهم اجراؤها .

أظن ان هذه الصفة من صفات المهرجان هي التي كانت ترضي ابا العلاء وتملأ قلبه الحزين البائس غبطة وسروراً . فقد كان أبو العلاء ابعد الناس عن الاثرة وأقربهم الى الايثار وأشدهم نقداً للناس وأعظمهم رحمة للناس ايضا . ورحمته للناس وشوقه الى أن يراهم ناعمين في ظل العدل والامن والسلم هي التي كانت ترضيه عن هذا المهرجان الذي تقيمه سورية في ظل حكومتكم العادلة الكريمة الطامحة الى المجد الموفقة من الخير الى ما تريد سورية وإلى ما يريد العرب لهذا الوطن الكريم .

والواقع أن من حق سورية أن تقيم هذا المهرجان وان تحتفل بذكرى ابي العلاء وتحيي عيده الالفي . فأبو العلاء نابغة الادب العربي غير مدافع وهو فذ في هذا الادب لم يسبقه مثله ولم يلحقه مثله ، وانما كان منحة فريدة اتيح له أن يمتاز بشعره وعلمه وفنه وفلسفته وسيرته من جميع الذين سبقوه أو جاؤا بعده من الادباء .

هو نابغة الأدب العربي غير مدافع وهو في الوقت نفسه سوري خالص تستطيع سورية أن تفاخر به لا ينازعها فيه قطر من أقطار البلاد العربية ولا تخاصمها فيه مصر من أمصار البلاد العربية .

فقد كان لسورية قبل ابي العلاء حظ عظيم من المجد الادبي وفضل عظيم على الادب العربي . وكان لها شعراء يمتازون في تاريخنا الادبي المجيد ولكنهم لم يخلصوا لها كما خلص لها أبو العلاء . فلسورية أبو تمام والبحتري بل يمكن ان يضاف اليها المتنبي ايضا . ولكن هؤلاء الشعراء وغيرهم قد نازعت فيهم أقطار أخرى فابو تمام قد ذهب إلى مصر وإلى العراق والبحتري قد ذهب إلى العراق والمتنبي قد جاء من العراق وعاد اليه وكلهم تأثر بهذه البيئات البعيدة من سورية وأثر فيها بحيث استطاعت هذه البيئات ان تضيفه الى نفسها وان تفاخر به .

أما ابو العلاء فهو الشاعر السوري الخالص ولد في سورية ونشأ فيها وتوفي فيها ولم يغب عنها الا وقتا قصيراً ذهب فيه الى العراق ولكن دون ان يكون محتاجاً الى هذه الرحلة لتكوين شخصيته او إتمام نضجه أو تحقيق شهرته . وأبو العلاء يحدثنا وهو صادق اذا تحدث بأنه لم يحتج الى استاذ ولا معلم منذ بلغ العشرين ونحن نعلم انه رحل إلى العراق حين قارب الاربعين وان شهرته كانت قد سبقته الى بغداد قبل أن يصل اليها بزمن طويل .

فمن حق سورية اذن أن تستأثر بابي العلاء وأن تفخر بأنها قد منحت الادب العربي نابغته الفذ . ولكن سورية كشاعرها الفيلسوف تكره الاثرة أشد الكره وتحب الايثار اعظم الحب وهي من أجل ذلك لاتفاخر ولا تكاثر وانما تدعو الاقطار العربية وغير الاقطار العربية لمشاركتها في أحياء عيد أبي العلاء لا لأنه مجد سورية بل لانه مجد العروبة ومجد الانسانية كلها .

وقد أقبلت وفود هذه البلاد العربية تكرم أبا العلاء في سورية وتكرم سورية في أبي العلاء وإني ياصاحب الفخامة لعظيم الحظ من السعادة والغبطة حين أحمل اليكم وإلى سورية وإلى اخواننا الذين يشاركون في هذا المهرجان تحية مصر صادقة خالصة يملؤها الوفاء والاخاء . وحين أعلن ان مصر قد

قدرت من سورية هذه العاطفة الكريمة وهذا الوفاء النبيل للمجد العربي وهذا الحرص الكريم على احياء هذا المجد باقامة هذا المهرجان . وقد رأت مصر أن تشارك سورية في احياء هذا المجد العربي القديم مشاركة متواضعة فقررت حكومتها ان تنشر آثار ابي العلاء أو بعبارة ادق كل ما يمكن الحصول عليه من آثار أبي العلاء نشرا علميا صحيحاً وبدأت في ذلك بالفعل وحرصت على أن يأتي وفدها الى هذا المهرجان ومعه باكورة هذا العمل الذي لن يتم في عام أو أعوام قليلة ولكنه سيحتاج الى الجهد المتصل والوقت الطويل . . ويسر مصر ان تقدم الى المهرجان أول جهدها في هذا الموضوع وهو هذا المجلد الذي يشتمل على ما أمكن جمعه مما كتب القدماء حول أبي العلاء .

فقد رأت مصر ان يكون هذا المجلد مقدمة صالحة لآثار ابي العلاء يستطيع العلماء ان يعتمدوا عليه إذا أرادوا أن يدرسوا حياة شيخ المعرة ويعرفوا آثار القدماء فيه . ثم رأت مصر ان تكون مشاركتها في احياء ذكرى ابي العلاء متصلة بشخصه وبلده وقد علمت ان سورية قد جددت قبر الشيخ وأقامت الى جانبه مكتبة فقررت أن تشارك في هذه المكتبة وكلفني وزير المعارف ان أعلن ان الحكومة المصرية تتبرع بألفين من الجنيهات لتشتري بها الحكومة السورية بعض ما تحتاج اليه هذه المكتبة من الكتب .

والآن أريد أن أحدثكم عن كتاب الفصول والغايات وآسف أشد الاسف لأن الوقت لن يسمح لي بأن أحدثكم عنه فيما أحب من تفصيل بل فيما يستحق من تفصيل . فكتاب الفصول والغايات من أعظم آثار ابي العلاء خطرا في تاريخ الادب العربي ولعله أن يكون اعظم هذه الآثار خطرا في تاريخ الحياة العلائية نفسها . وأول ما أحققه من ذلك هو أن كتاب الفصول والغايات ، يؤرخ لنا فلسفة أبي العلاء تأريخا دقيقاً وليس هذا بالشيء القليل .

فابو العلاء ينبئنا بانه قد كان ينتظر الخير ويرقبه دون أن يظفر به حتى اذا بلغ الثلاثين ولم يبلغ ما كان يريد وجّه حياته وجهة جديدة (١)

(١) الفصول والغايات صفحة ٢٧٩

وإذن فلم يطلب أبو العلاء فلسفته في بغداد ولم يجدها فيها وإنما ارتحل بها الى بغداد وعاد بها الى المعرة لم يضف اليها إلاهذه السيرة العملية الشديدة التي الزمته داره . فاما ما عدا ذلك من فلسفته النظرية والعملية فاكبر الظن انه قد دفع اليها شيئاً فشيئاً ثم التزمها منذ بلغ الثلاثين اي قبل رحلته الى بغداد ببضع سنين .

وهذه الفلسفة العلائية نفسها معروضة في كتاب الفصول والغايات عرضاً واضحا اشد الوضوح غامضاً أشد الغموض ان صح هذا التعبير فأبو العلاء كما تعرفون رجل اتعب نفسه واتعب معاصريه واتعب الناس بعده وسيظل يتعبهم الى آخر الدهر لأنه على صرامته وصراحته واستقامته في حياته العملية لا يسلك الطريق الواضحة المستقيمة في عرض آرائه وانما يلتوي بها أشد الالتواء يصرح حينا ويومئ أحياناً وهو معلم بطبعه وهو شديد على نفسه وعلى الناس وكل هذا يجعل عباراته غامضة ملتوية ويشغلنا بالفاظه عن معانيه وبأساليبه عن آرائه وبفنه عن دخيلة نفسه ومع هذا كله فان فلسفته معروضة في الفصول والغايات عرضا حسنا للذين يستطيعون ان يصابروه ويحتملوا صحبته الحلوة المرة اليسيرة الشاقة . وليست هذه الفلسفة الا فلسفة ابيقور قد لاءم بينها وبين بيئته الاسلامية ملاءمة رائعة حقا حتى خدع عنها كثيرا من الناس فظنوها اسلامية خالصة ورأوا فيها مذهباً موروثاً من مذاهب الزهد والنسك .

وأكبر الظن ان فلسفة ابيقور قد وصلت الى ابي العلاء من طريق الطب اليوناني ومن طريق طب جالينوس بنوع خاص فقد كان ابو العلاء معجبا أشد الاعجاب بجالينوس قرأ طبه مترجماً الى اللغة العربية ومفصلا في كتب الطب العربي وهذه الفلسفة العلائية الأبيقورية تقوم قبل كل شيء على انكار العلة الغائية التي يؤمن بها كثير من الفلاسفة وأصحاب الديانات جميعاً . فالأشياء لم تخلق بهذه الغايات التي نرى انها خلقت لها . وكان من الممكن ان تخلق على غير صورها المعروفة ، وكان من الممكن أن ينظر الانسان بقدميه ويشم بمنكبيه

ويبكي باصابعه . واذن فالعالم لم يخلق لنا والطبيعة لم تسخر لحاجاتنا واذن فلا ينبغي ان نستحل منها كل ما نستحل ولا أن نستأثر بخيراتها لانفسنا ولاأن نؤلم الحيوان للذتنا ولا أن نظامه لمنفعتنا . فليس حقنا في الحياة باكثر من حقه وليس لنا عليه هذا السلطان الذي ننتحله لانفسنا .

انما هذا كله غرور جاءنا من هذه الاثرة التي خيلت الينا ان العالم خلق من اجلنا وسخر لمنفعتنا هذا هو الاصل الاول من أصول الفلسفة العلائية التي نجدها في كتاب الفصول والغايات . والاصل الثاني هو أن من حقنا ان نستمتع باللذات الى أقصى حد ممكن ولكن هذا الاستمتاع لا سبيل اليه لأنه لا يصح ولا يستقيم الا اذا خلا من الالم والظلم والعدوان . وليس الى هذا سبيل . واذن فالانصراف عن هذا الاستمتاع هو الخير كل الخير وهو الحق على الرجل الذي يعرف ما يأتي وما يدع . والاصل الثالث ان هذا العالم لم يخلق نفسه ولم يخلق عبثاً وانما خلقه إلهٌ ليس في وجوده شك وخلقه لحكمة ليس فيها شك ولكن عقولنا لا تعرفها ولا تستطيع ان تعرفها لأنها لم تمنح وسائل هذه المعرفة كما ان اجسامنا لم تمنح السلم الذي يوصلها الى الثريا .

هذه هي الاصول الاساسية لفلسفة ابي العلاء وهي كلها معروضة عرضاً دقيقا في الفصول والغايات ولكن الوصول اليها شيء دونه أهوال . اهوال تأتي من اللغة ومن الاسلوب ومن حرص ابي العلاء على ان يكون معلما وبراعته في هذا التعليم . فليس الفصول والغايات كتاب فلسفة فحسب ولكنه كتاب لغة قبل كل شيء أو كتاب تعليم للغة . هو مذهب من مذاهب الأمالي والمقامات التي يقصد بها اصحابها الى استعمال الالفاظ في معانيها اللغوية المختلفة بحيث يكون استظهار الطلاب لها يسيراً . ثم هو بعد هذا كله أو قبل هذا كله ان شئتم كتاب وعظ وارشاد وتمجيد لله وإشادة بقدرته وحكمته فليس فيه فصل الا وفيه كل هذه المعاني وليس فيه فصل الا وهو يقصد به الى كل هذه الاغراض والكتاب على هذا كله كتاب ادب بالمعنى الرفيع لهذه الكلمة . فيه فن رائع لا نجده عند غير ابي العلاء من الكتاب ، فيه تصوير للطبيعة على نحو ما صورها شعراء

الطبيعة من الجاهليين والاسلاميين ، وفيه تصوير للسماء على نحو ما صورها شعراء القدماء من جهة وأصحاب النجوم والفلك من جهة أخرى . وفيه تصوير للضمير ودخيلة النفس وما يثور في القلب من عاطفة وما يضطرب فيه من أماني وما يؤذيه من حرمان وما يخطر للعقل من خاطر وما يؤلمه من اليأس حين يعجز عن الوصول الى الحق وما يرضيه من هذه المتعة التي يجدها حينما يظفر ببعض الحق .

كل هذا في كتاب الفصول والغايات ، وفيه اكثر من هذا ، فيه التزام ما لا يلزم فتأليف الكتاب على حروف المعجم لم تدع اليه ضرورة وانما هو شيء فرضه أبو العلاء على نفسه لينستقصي ما يستطيع استقصاءه من الفاظ اللغة وليأخذ نفسه بهذه اللذة المؤلمة والمشقة الحلوة التي يجدها الانسان حين يكلف نفسه مالايطيق الناس ثم يرى انه ينهض بهذا التكليف في قوة وأيد وقهر للمصاعب واقتحام للعقاب .

وقولوا مثل ذلك فيما يلتزمه في السجع والغايات من القيود المحرجة ، بل فيما يلتزمه حين يلائم بين الكلمات في أثناء الفصل الواحد من القيود التي لا تكاد تخطر لأحد منا على بال . ثم نسأل أنفسنا بعد ذلك عن شيئين أما أولهما فقد تساءل عنه القدماء واختلفوا فيه اختلافاً مصدره الحب والبغض وهو هل أراد أبو العلاء في كتاب الفصول والغايات إلى معارضة القرآن ! فأما أنا فأجيب على هذا السؤال في غير تكلف ولا تعمل فقد كان أبو العلاء أذكى قلباً وأرجح عقلاً وأنفذ بصيرة وأشد تواضعاً وأحسن علماً بطاقته من أن يحاول هذه المعارضة أو يقصد اليها . ولكنه كان كغيره من أدباء المسلمين معجباً بالقرآن مكبراً له مقدراً لروعته الفنية فليس من شك في أنه كان يتمثل أو يستحضر بعض أساليب القرآن حين كان يفكر في كثير من الفصول والغايات . يذهب في ذلك مذهب كثير من أدباء المسلمين لا يجد فيه ولا نجد فيه نحن حرجاً ولا جناحاً .

أما السؤال الثاني فلا أعلم أنه خطر لأحد من القدماء وهو مع ذلك سؤال له خطره في تاريخ أبي العلاء . فأي الكتابين سبق صاحبه الى الوجود ، وكان أصلاً له ومؤثراً فيه . الفصول والغايات ام اللزوميات . اما انا فأكاد

اقطع بأن الفصول والغايات هو الذي سبق إلى الوجود ، وهو الذي أنشأ اللزوميات انشاء وما بين أيدينا من كتاب الفصول والغايات كله يدل على ذلك دلالة قاطعة . فأبو العلاء يلتزم ما لا يلزم على نحو من الانحاء في الكتاب كله وفي قوافيه بنوع خاص . واكبر الظن أن ابا العلاء قد حاول التزام ما لا يلزم في كل شيء من حياته وفي انتاجه الأدبي حتى أصبح هذا الفن له ملكة كأنه طبع عليها فكان يؤدي في هذا الفن ما يريد أن يؤديه من المعاني شعراً أو نثراً ولكنه بدأ بالتزام هذا الفن في النثر رغبة في التعليم وتيسيراً على الطلاب .

أترون أن أبا العلاء على كثرة ما اختلف الناس فيه قد كان فيلسوف الرأي والحياة وكان مع هذا كله أديباً عالماً شاعراً كاتباً طرق من فنون الأدب والعلم العربي الاسلامي ما لم يتح لأديب غيره أن يطرقه فجنى بذلك على نفسه وجنى على الناس . جنى على نفسه حين حير الناس في أمره فزعم له بعضهم الفلسفة ونفى عنه الشعر وزعم له بعضهم الشعر ونفى عنه الفلسفة ويوشك قوم من الناس أن ينفوا عنه الشعر والفلسفة جميعاً وجنى على الناس بهذه الحيرة التي اضطرهم اليها وورطهم فيها فاختلفوا وما يزالون يختلفون وسيظلون يختلفون في أمره . أشاعر هو أم فيلسوف ! أكاتب هو أم عالم أم معلم !

والواقع أنه قد جمع هذه الخصال كلها وجمعها على أحسن شكل وأجمل انسجام وأروعه فأخذ من الشعر خلاصته ومن الفلسفة الانسانية صفوتها ومن علوم اللغة وآدابها ما لم يجتمع لأحد غيره من العلماء والأدباء وجنى على نفسه وجنى على الناس ، ولكن أي نابغة لم يجن على نفسه ولم يجن على الناس . أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشقى بنبوغه ليسعد الناس أليس الخير كل الخير أن يوجد النابغة ويشق على الناس ويكلفهم من أمره وأمرهم شططاً ليتعبوا ويجدوا ويظفروا وينتجوا ويستمتعوا . وهل تظنون أننا كنا نستطيع أن نجتمع لهذا المهرجان لو لم يشق أبو العلاء على نفسه وعلى الناس .

طه حسين